

الإنسانية النسبية

العائق الأساسي أمام الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين التاريخية

. عمر البرغوثي ❖ .

من ثلثي الفلسطينيين، من اللاجئين والمواطنين داخل دولة إسرائيل، شُطِّبوا بقِصَرِ نظرٍ وبما يبعث على الارتياح في التعريف الخاص الذي أعطي له الفلسطينيون. ومن شأن شطب كهذا أن يضمن استمرار الصراع إلى الأبد

II - الإنسانية النسبية

منذ البداية كانت ذريعتا الصهاينة الأساسيتان لتبرير استعمار فلسطين هما: (أ) أن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب، خراباً نائياً عن الحضارة؛ (ب) أن اليهود يملكون حقاً إلهياً بـ «تخليص» فلسطين وفقاً لوعدهم من الله نفسه، وأن الإسرائيليين - بحسب التوراة - بنوا ممالكهم على كامل أرض كنعان قبل حوالي ألفي سنة، الأمر الذي يمنحهم حقوقاً تاريخية في امتلاك هذه البلاد.

غير أن الحجتين كليهما قد بُتت منذ زمن أنهما أسطورتان لا أساس لهما. والفضل في ذلك يعود في جزء غير يسير إلى العمل الجاد الذي قام به مؤرخون وأثاريون إسرائيليون^(١)، وتبقى اعتبارات المصالح الاستعمارية الوحشية هي الدافع

لقد أصيبت إسرائيل بالعمى نتيجة لغرور القوة، وللكون إلى راحة سريعة الزوال هي راحة الإفلات من كل عقوبة دولية. وعجزت عن ضبط شهيتها النهمية إلى التوسع، بما يناقض أهدافها الصهيونية الاستراتيجية نفسها، فمضت قدماً بافتراس آخر قطعة صغيرة من الأرض التي كان يُفترض أن تشكل الأساس المادي لإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

والحال أن المرحلة الحالية تتسم بكل الصفات التي تشير إلى ما يمكن اعتباره الفصل الأخير من المشروع الصهيوني، وإننا لنشهد الأقول السريع للصهيونية، وليس ثمة ما يُمكن عمله لإنقاذها لأنها عازمة على قتل نفسها بنفسها. وأنا، شخصياً، أؤيد القتل الرحيم من كل قلبي! وبالعودة إلى حلّ الدولتين فإنه - إضافة إلى انتهاء فترة صلاحيته - لم يكن يوماً حلاً أخلاقياً إذ كان يتعدّر عليه في أحسن السيناريوهات، أي حتى لو طبّق قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بحذافيره، أن يبحث في معظم الحقوق المشروعة لأقل من ثلث الشعب الفلسطيني على أقل من خمس أرض أجدادهم. أي أن أكثر

قد يكون الغزو محفوفاً بالشر أو بالحير لبني البشر، بحسب القيمة النسبية للشعوب التي تمارس الاحتلال أو تخضع له^(٢)

ثيودور روزفلت

I - تقديم

لقد بدّل آخر الصهاينة الحقيقيين أقصى جهودهم، بدءاً باتفاق «ايالون» المخزي وانتهاءً باتفاقيات جنيف المعيبة، وبمساعدة حاسمة من مسؤولين فلسطينيين مُدعّين، من أجل إحياء الحلّ القائم على دولتين فلسطينية وإسرائيلية، وبنية معلنه هي إنقاذ الصهيونية. لكن الأرجح أن ما فعلوه قليل جداً، بل ومتأخر جداً.

ذلك أن الحلّ القائم على دولتين قد لفظ أنفاسه الأخيرة. وسبحان من خلصنا منه! لكن على أحدم ما أن يُصدر شهادة وفاة رسمية قبل أن تُدفن جثته المتعفنة دفناً يليق بها، فننتقل إلى البحث عن البديل الأكثر عدلاً وأخلاقيةً ومن ثم الأكثر ديمومةً للتعايش السلمي بين العرب واليهود. على أرض فلسطين التاريخية، وأعني الحلّ القائم على دولة واحدة.

❖ - مدرّب، وأحد مصممي الرقص في فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية برام الله، يُدرّس الفلسفة في جامعة تل أبيب، وموضوع بحثه: «نظرة أخلاقية إلى

الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين التاريخية».

١ - Theodore Roosevelt, *The Winning of the West*, reproduced in: Norman Finkelstein, "History's Verdict: The Cherokee Case," *Journal of Palestine Studies*, Summer 1995, University of California Press.

٢ - بيّنت عدة أبحاث أثرية أن معظم قصص التوراة التي يستخدمها الصهاينة لتعزيز حقهم في فلسطين لم تستند إلى شواهد من تاريخ هذه المنطقة المبني على أدلة مباشرة من علم الآثار والجغرافيا التاريخية، وتدعّمه تناظرات مستقاة أساساً من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع واللسانيات، على

نحو ما كتب عالم الآثار توماس ل. تومسون www.bibleinterp.com/articles/copenhagen.htm

الحل القائم على دولتين فلسطينية
وإسرائيلية انتهت فترة صلاحيته، وهو
لم يكن يوماً حلاً أخلاقياً أصلاً

المواطنين فيهما؛ ج - تطبيق نسخة
صهيونية من الفصل العنصري
(الأپارتايد) داخل حدود ٤٨.

III - ١ - ١ - حرمان اللاجئين
الفلسطينيين من حقوقهم. تهربت
إسرائيل يوماً من تحمل أي مسؤولية عن
جريمة خلق أقدام وأضخم مشكلة لاجئين
في العالم، برغم كل الأدلة الجنائية
الكاسحة. والإسرائيليون، بشكل عام،
يُعتبرون تدميرهم الهمجي للمجتمع
الفلسطيني وتهجيرهم الشعب الفلسطيني
«استقلالاً» لهم. حتى «اليساريون»،
الملتزمون، غالباً ما يتحسرون على
إضاعة إسرائيل «لتفوقها الأخلاقي» بعد
احتلالها الضفة وغزة عام ٦٧، وكأنها
قبل ذلك كانت ملتزمة بالقوانين والأعراف
الإنسانية والمدنية شأن فنلندا. ولذا يبدو
وكان معظم الإسرائيليين الذين شاركوا
في النكبة أو شهدوا أحداثها قد أصيبوا
بفقدان ذاكرة مزمن... وانتقائي.

تعود جذور هذا النكران إلى
الهولوكوست (المسارق النازية) وإلى
الظروف القياسية التي نجمت عنها
وسمحت لإسرائيل بأن تزعم أنها -
خلافاً لأي دولة أخرى - كانت مُجبرة
على حرمان اللاجئين الفلسطينيين من
حقوقهم في العودة إلى بيوتهم وأراضيهم،
وذلك تحديد بهدف الحفاظ على «الطبيعة

الحقوق التي تُعتبر في حالة البشر
«التامين» حقاً غير قابلة للنقض.
والحال أن اعتبار الفلسطينيين مجرد
بشر نسيين قد لعب دوراً حاسماً في
عرقلة الحل المبني على دولة تكاملية
واحدة في فلسطين التاريخية.

III - طرق «حل» الصراع

نظراً لاستحالة تحقيق «حل الدولتين»
على أساس تفاوضي يُعطي الفلسطينيين
حقوقهم الدنيا غير القابلة للنقض، ثمة
ثلاث طرق منطقية يُمكن اتباعها:

(١) الحفاظ على الوضع القائم، وتدبير
الصراع. ويكون ذلك أساساً بالاحتفاظ
ببعض الأمل حياً (ولو على الورق) في
إمكانية الوصول إلى حل الدولتين. (٢)
«إنهاء المهمة». ويكون ذلك عبر تطبيق
تطهير عرقي كامل يُطرد الفلسطينيين
بموجبه من كامل فلسطين الانتدابية. (٣)
إطلاق سيرات تحررية جديدة،
استشراعية، وأخلاقية، وعملية. وهذه
السيرورات يمكن أن تؤدي في نهاية
المطاف إلى تأسيس دولة ديموقراطية
تكاملية بين الأردن والبحر المتوسط.

III - ١ - الحفاظ على الوضع القائم.
يُسم الوضع القائم بثلاث سمات هي:
١ - حرمان اللاجئين الفلسطينيين من
حقوقهم؛ ب - احتلال الضفة وغزة وقمع

والتفسير المنطقيين الأساسيين لاقتلاع
أكثر الشعب الفلسطيني من أرضه عام
١٩٤٨ وبناء دولة إسرائيل على أنقاض
مجتمعه. فالحق أن في صميم مبررات ذلك
الاقتلاع إيماناً كولونيالياً راسخاً بحقارة
الحقوق والحاجات والتطلعات الفلسطينية
الأخلاقية وتفاهتها، مقارنة بحقوق المحتلّين
الصهاينة وحاجاتهم وتطلعاتهم. فقد نكّر
بلفور مثلاً في إعلانه الشهير ما يلي: «إن
القوى الأربع العظمى تلتزم الصهيونية.
والصهيونية، صواباً أو خطأ، خيراً أو
شراً، متجذرة في تقاليد عريقة، وفي
حاجات حالية، وفي آمال مستقبلية، وكلها
أهم على نحو أعمق بكثير من رغبات
وأهواء الـ ٧٠٠ ألف عربي الذين يسكنون
الآن في هذه الأرض القديمة.»^(١) وهذه
حالة واضحة مما أسمّيه «الأنسنة
النسبية» relative humanization.
وأُعرّف «الإنسانية النسبية» relative
humanity بأنها الإيمان (كما أُعرّف
«الأنسنة النسبية» بأنها التطبيق المستند
إلى ذلك الإيمان) بوجود بشر محددين
يشتركون في صفة دينية أو إثنية حضارية
أو هوياتية أخرى، وبسببها يفتقرون إلى
صفة أو أكثر من الصفات الضرورية
للشعر؛ فهم - لذلك - بشر بالمعنى النسبي
وحده، لا بالمعنى المطلق الذي لا لبس فيه
وعليه، فإن هؤلاء «البشر النسبيين»
مؤهّلون للحصول على جزء محدود من

"The Origins and Evolution of the Palestine Problem," UN Committee on the Exercise of the Inalienable Rights of the - ١
Palestinian People, <http://domino.un.org/UNISPAL.NSF/0/aeac80e740c782e4852561150071fdb0?OpenDocument>

اليهودية» لدولة إسرائيل. وتمضي الحجة الإسرائيلية بالقول إن تلك كانت الوسيلة الوحيدة للحفاظ على ملجأ آمن لليهود العالم، «السوبر ضحايا» الذين يعانون عدم الأمان بين «الأعداء» وإن هذا الهدف أهم بكثير طبعاً من حقوق السكان الأصليين، أي العرب الفلسطينيين. والحق أن ليس ثمة اليوم أي دولة على وجه الأرض تستطيع أن تُقَلِّبَ بمثل هذا التفكير العنصري الوقح بحقها في النقاء العرقي. كما أن حرمان إسرائيل الفلسطينيين من حق العودة، بالإضافة إلى استجالة الدفاع عنه أخلاقياً، يُكشَفُ عن تناقض أخلاقي فريد في أمور عدة. فالقانون الإسرائيلي الذي ينص على حق اليهود في «العودة»، مثلاً، يستند إلى كونهم طُردوا من فلسطين قبل أكثر من ألفي عام. إذن، حين تمنع إسرائيل اللاجئين الفلسطينيين من العودة، مع أنهم طُردوا منذ ٥٥ عاماً فقط - وهذا ظلمٌ أحدث بكثير من الناحية الزمنية، كي لا نقول أكثر من ذلك - فإنها عملياً تقول إن الفلسطينيين لا يمكن أن يكون لهم الحق نفسه لأنهم ببساطة - ليسوا بشراً مساوين لليهود. وإليك نموذجين عن هذا التناقض الأخلاقي: فلقد نجح آلاف

الإسرائيليين المتحدرين من أجداد المان في التقدم بطلب للعودة إلى ألمانيا، فنالوا الجنسية الألمانية، وتلقوا تعويضاً كاملاً عن ممتلكاتهم المنهوبة، وقَفَرَ عدد اليهود في ألمانيا من ٢٧ ألفاً في أوائل التسعينيات إلى أكثر من ١٠٠ ألف في العام ٢٠٠٢.^(١) كما أقرت بلجيكا قانوناً «يتيح للأملك التي كانت تخص العائلات اليهودية بأن تعود إلى أصحابها»، ووافقت على أن تدفع لليهود هناك ٥٥ مليون يورو تعويضاً عن الأملاك المسروقة التي «لا يمكن استرجاعها» وعن «التأمينات التي لم يطالب بها أصحابها ولكنها تخص ضحايا الهولوكوست».^(٢) لكن جوهر النفاق الأخلاقي يتجلى في المثال التالي الوارد في هارتس: «قام يهود من أصل إسباني، بعد أكثر من خمسة قرون على طرد أسلافهم من إسبانيا، بمطالبة الحكومة والبرلمان الإسباني بمنحهم الجنسية الإسبانية... إن على إسبانيا أن تُقر قانوناً يعترف بأن المتحدرين من صلب اليهود المطرودين ينتمون إلى إسبانيا، ويرد إليهم الاعتبار على ما يقول نسيم جايون، رئيس الاتحاد العالمي لليهود الشرقيين. بل هناك بعض

اليهود الشرقيين احتفظوا بمفاتيح بيوت أجدادهم في إسبانيا...»^(٣) ولكن يجب ألا نُكر أن حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة يناقض شروط «حلّ الدولتين» عن طريق التفاوض. فهذا الطريق يشترط قبول إسرائيل بعودة الفلسطينيين؛ وهو ما لن يحصل أبداً. وهذا ما يجعل حق عودة الفلسطينيين كعب أخيل في أي صفقة تخص ذلك الحل، ويدفعنا إلى القول إن حق العودة لن يُمكن تنفيذه إلا في إطار حل قائم على دولة واحدة - وهو حل سيُتيح للفلسطينيين أن يحولوا ضعفهم قوة، ولاسيما إذا قرروا اعتماد نهج لاعنف من أجل بناء دولة ديمقراطية علمانية؛ فذلك سيكسبهم دعماً عالمياً هائلاً ويحوّل الصراع إلى نضال واضح من أجل التحرر والديموقراطية والمساواة والعدالة غير المنقوصة.

III - ١ - ب - احتلال الضفة وغزة كُتب الكثير عن جرائم إسرائيل في الضفة وغزة،^(٤) ولذا ساكتفي هنا بالتذكير ببعض الأحداث الرهيبة، علماً أن أونا كينغ - وهي نائبة بريطانية يهودية - قالت تعليقاً على المفارقة التي يحياها يهود

١ - Reuters, "Germany: Growing Number of Israelis Seeking Citizenship," Ha'aretz, Monday, June 17, 2002.
٢ - Yair Sheleg, "Belgian Prime Minister Apologizes for his Country's Actions During Holocaust," Ha'aretz, October 7, 2002.
٣ - DPA, "Sephardi Jews Demand Recognition from Spanish Government," Ha'aretz, October 15, 2002.
٤ - انتهى فحص منظمة العفو الدولية لتصرفات إسرائيل أثناء الانتفاضة الحالية إلى الاستنتاج التالي: «هناك نسق من الانتهاكات المريعة لحقوق الإنسان التي يُمكن أن تُعتبر جرائم حرب.» www.cnn.com/2000/WORLD/meast/11/01/mideast.amnesty.reut

خريطة الجدار ظلّ شارون يفكر فيها منذ عام ١٩٧٣، ولم تكن هناك «تفجيرات انتحارية» آنذاك!

الوزارة والسلطة المذكورتان إلى إنشاء ممرات صغيرة للحيوانات، ومكثت المياه من مواصلة التدفق في الجداول. ومع ذلك ظلّ الناطق باسم سلطة المنتزهات غير راضٍ، بل اعترض بالقول: «إنّ الحيوانات لا تُعلم بوجود حدود الآن؛ فهي قد اعتادت مساحةً معينة للعيش وما يُقلقنا أنّ تنوعها الجيني سيتأثر سلبيًا، لأنّ المجموعات المختلفة لن تستطيع أن تتلاقح وتتناسل. إنّ عزل المجموعات على جانبي الجدار يخلق بالتأكيد مشكلةً جينية»^(٥)

● اصطياد الأطفال بهدف التسلية: فعلى سبيل المثال كشف كريس هيدجر كيف يشتم الجنود الإسرائيليون الأطفال الفلسطينيين في غزة؛ وحين يغضب هؤلاء ويرمون الجنود بالحجارة، يردّ الجنود بإطلاق النار من بنادق مجهزة بكواتم صوت. «فيما بعد»، يكتب هيدجر، «في المستشفى، سارى الدمار مَعْدَاتٍ مبقورة، وثقوبًا فاغرة في الأطراف والجدوع». ثم يخلص إلى القول: «لقد أطلقت النار على الأطفال في صراعاتٍ أخرى سبقَ أن غطيَتْها للصحافة... لكنني لم أشهد من قبل جنودًا يُثرون

أرييل شارون إلى هنا منذ عام ١٩٧٨ وقد أخبرني أنّه ظلّ يفكر فيها منذ عام ١٩٧٣. «المعلوم أنّه لم تكن هناك «تفجيرات انتحارية» آنذاك!

لكنّ على الرغم من الانتهاك الفاضح الذي يشكّه الجدارُ لحياة الفلسطينيين وبيئتهم وحقوقهم السياسية، فإنّ ثمة «إجماعًا شبه كلي»^(٣) في صفوف اليهود الإسرائيليين على دعمه. غير أنّ عددًا من الهيئات في إسرائيل «قلقة» من أضرار الجدار. على الحيوان والنبات! فما هي وزيرة البيئة الإسرائيلية يهوديت ناعوت تحتج على الجدار قائلة: «إنّ سياج الفصل يقطع تواصل المساحات المفتوحة، ويؤذي المناظر الطبيعية، والحياة النباتية والحيوانية، والممرات البيئية، وتصريف مياه الجداول... أنا بالتأكيد لا أريد أن أوقف أو أُحَرَّ بناء الجدار، لأنّه ضروري وسيُنقذُ أرواحًا... بيد أنّي في المقابل منزعة من الدمار البيئي الذي سيحدثه»^(٤) ولهذا بذلت وزارتها وسلطة حماية المنتزهات القومية «مساعي حثيثة لإنقاذ أرض كانت مخصّصة لزراعة السوسن ولكنها تضررت بسبب الجدار، فنقلتها إلى محميةٍ أخرى. كما عمدت

إسرائيل اليوم، وذلك بعد أن زارت قطاع غزة المحاصر تمامًا. «بعد أن هربوا من رماد الهولوكوست سَجَنُوا شعبًا آخر في جحيم يُشبه غيتو وارسو بطبيعته، وإنّ لم يشبهه بمداه»^(١)

● جدار الفصل العنصري. بالرغم من أنّ إسرائيل تحاول الآن أن تصف الجدار بأنه حاجزٌ أمنيٌّ «يحميها من المفجّرين الانتحاريين»، فإنّ الواقع هو أنّ المسار الحالي للجدار المذكور ليس بدعةً أبدًا.^(٢) فقد اقترحه على أرييل شارون «نبيُّ التهديد العربيّ السكاني»، العالم الديموغرافي أرنون سوفر، الذي يُصرّ على أنّ ما يُنفذ حاليًا لجهة بناء الجدار هو من بنات أفكاره. ويعترف بأنّ خطة الجدار قد رُسمت بهدفٍ واحدٍ لا غير: زيادة الأرض الملحقة بإسرائيل، مع تقليل عدد «العرب» المصاحب لتلك الزيادة.

على أنّ سوفر ربّما يعطي نفسه «فضلاً» أكبر مما يستحقّه. فقد كشف رون ناحمان، رئيس بلدية مستوطنة أرييل في الضفة الغربية، إلى جريدة يديعوت احرونوت أنّ «خريطة الجدار، التي ترى تخطيطًا أوليًا لها هنا، هي الخريطة عينها التي كنتُ أراها عند كل زيارة قام بها

١ - Oona King, "Israel Can Halt This Now," **The Guardian**, June 12, 2003.
٢ - Meron Rappaport, "A Wall in their Heart," **Yedioth Ahronot**, May 23, 2003.
٣ - **Ha'aretz** Editorial, "A Fence Along the Settlers' Lines," October 3, 2003.
٤ - Mazal Mualem, "Old Habitats Die Hard," **Ha'aretz**, June 20, 2003.
٥ - Ibid.

الأطفال كالفئران إلى المصيدة ثم يقتلونهم للتسلية.»^(١)

● الاعتداء الجنسي. وفي جريمة أخرى، دَفَع صابطان من حرس الحدود الإسرائيليّين راعياً فلسطينياً إلى أن يضع سَرَجَ حماره على ظهره، وإلى أن يروحَ ويجيء، أمامهما. ثم أُجبره أحد الضابطيّين - تحت تهديد السلاح - على ممارسة الجنس مع حماره نصف ساعة!^(٢)

لا عجب، إذن، أن تجد واحدةً باتّزانٍ شُولاميت ألوني، وهي عضوٌ سابقٌ في الكنيسة، لزاماً أن تقول: «ليست لدينا عُرفُ غاز ولا مَحارقُ جثث، لكنّ ليست هناك طريقٌ واحدةٌ ثابتة للقتل!»^(٣)

III-١- ج - سياسة إسرائيل في التمييز العنصري: ذكية وملطفة، ولكنها أبارتايد رغم كل شيء. يقول الباحث الأميّزكي إدوارد هيرمان: «لو طُلب من اليهود في فرنسا أن يَحْمِلُوا بطاقات تعريفٍ تشير إلى أنّهم يهود (وإن كانوا مواطنين فرنسيين)، ولو لم يُتَع لهم شراءُ أراضٍ ولا شراءُ أو استئجارُ بيوتٍ في معظم البلاد، ولو لم يُسمح لهم بالخدمة

العسكرية، ولو حَظَر القانونُ الفرنسيُّ أيّ حزبٍ سياسيٍّ أو تشريعٍ يدعو إلى مساواة اليهود بغيرهم في الحقوق، أكانت فرنسا ستحظى بالإطراء الواسع في الولايات المتحدة بوصفها رمزاً للاستقامة الإنسانية (بحسب نيويورك تايمز) ونموذجاً للديموقراطية؟»^(٤)

إنّ الدعوة إلى المساواة الشاملة والصريحة بين العرب واليهود داخل مناطق ٤٨ أصبحت في عرف أكثر الإسرائيليين تساوي الانفصال، إن لم نقل الخيانة. وقد سجّل قاضٍ في المحكمة الإسرائيلية العليا مؤخراً «أنّ من الضروريّ منَع يهوديٍّ أو عربيٍّ يطالبُ بمساواة العرب في الحقوق [مع اليهود] من أن يجلس في الكنيسة أو أن يُنتخبَ إليه.»^(٥) كما أظهر استطلاع حديث أجراه «معهد إسرائيل للديموقراطية» أنّ ٥٣٪ من اليهود الإسرائيليين يعارضون إعطاء المساواة الكاملة للمواطنين الفلسطينيين داخل مناطق ٤٨، وأنّ ٥٣٪ يعتقدون أنّ على هؤلاء الفلسطينيين «أن يُشجّعوا على الهجرة». وكانت إحدى الخلاصات الأساسية لذلك الاستطلاع

هي أنّ اليهود الإسرائيليين عندما يقولون «نحن» فإنّهم بالكاد يَشْمَلون المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل.^(٦)

في ما يخصّ حقوق ملكية الأراضي، تحديداً، فإنّ اللامساواة صريحة واضحة. «يُمنع بيعُ الشقق في أرض إسرائيل للأغيار»، قال رئيسُ حاخامات إسرائيل عام ١٩٨٦.^(٧)

والحال أنّ إسرائيل، في كلّ مجال حيويٍّ من مجالات الحياة، بما في ذلك قوانينُ الزواج والتنمية المدنية والتربية، قد أتمّت بناءً جهازاً شاملاً للتمييز العنصريّ لا مثيلٌ له اليوم في العالم أجمع ضد مواطنيها الفلسطينيين

وعليه، وبالاستناد إلى كلّ الأبعاد التي ذكرناها في هذا القسم، تتضح استحالة الحفاظ على الوضع القائم، إمّا بسبب مقاومة الفلسطينيين أو بسبب الإدانة الدولية له.

IV - التطهير العرقيّ

غالباً ما يتساجل رجالُ السياسة والمثقفون والإعلاميون الإسرائيليون، في

١ - Chris Hedges, "A Gaza Diary," Harper's Magazine, October 2001.

٢ - B'Tselem, "Sexual Assault in Zeita," June 2003. www.btselem.org

٣ - Shulamit Aloni, "Murder of a Population under Cover of Righteousness," Ha'aretz, March 6, 2003.

٤ - Edward S. Herman, "Israeli Apartheid and Terrorism," Z-Magazine, 29 April 2002.

٥ - Ibid.

٦ - Ha'aretz, May 22, 2003.

٧ - Ha'aretz, January 11, 1986.

الدعوة الإسرائيلية العامة لإخضاع الديموقراطية للديموغرافيا تستلزم آليات للحد من تزايد الفلسطينيين تُذكر بالآليات النازية

من باروخ كيميرلنغ، الأستاذ في الجامعة العبرية، فكتب: «دعوني أمدُ منطق بني موريس [فأقول]: ... لو كان البرنامج النازي للحل النهائي للمشكلة اليهودية كاملاً، فمن المؤكد أن السلام كان سيُسود اليوم في فلسطين»^(١)

ولكن، يتساءل المرء، لماذا لا تحقق إسرائيل رغبتها الآن؟ البروفسور إيلان يابي يقدم جواباً مُفنعاً: «إن الكواح على التصرفات الإسرائيلية ليست أخلاقية ولا أديبية، بل تقنية. فكَم بإمكان [إسرائيل] فعله من غير أن تتحوّل إلى دولة منبوذة، ومن غير أن يُدفع الأوروبيون إلى فرض عقوبات عليها، أو أن يُجعل موقف الأميركيين [المؤيد لها] صعباً جداً»^(٢)

غير أن مارتن فان كريكلد،^(٣) وهو أبرز مؤرّخ عسكري في إسرائيل، وأحد مؤيدي التطهير العرقي، يقدم تفسيراً مناقضاً تماماً لتفسير يابي. فهو يهز كتفيه استخفافاً بأي اعتبار للرأي العالمي، ليطلق التنبية المرعب التالي: «إننا نملك عدة مئات من الرؤوس الحربية الذوية والصواريخ، ونستطيع أن نُطلقها، إلى أهداف في شتى

كما أن أربيل شارون، الذي يُقلقه التفوق العدديّ الشيك للغالبية العربية بين الأردن والبحر المتوسط، ناشدّ القادة الروحيين بأن يسهّلوا هجرة غير العرب إلى إسرائيل حتى لو لم يكونوا يهوداً، وذلك لكي يقدموا لإسرائيل «خزانَ أمانٍ ضدّ السكان العرب المتزايدين»^(٤) وينصح الوزير الإسرائيلي اليميني المتطرف إفي إيتام باتباع علاج آخر: «إذا لم تُعطوا العرب حقّ التصويت فستحلّ المشكلة الديموغرافية نفسها بنفسها»^(٥)

ومع ذلك فإنّ الآلية الإسرائيلية المفضّلة دوماً للحد من ازدياد العرب كانت ومازالت التطهير العرقي. وهذه الآلية التي مورست بشكل متواصل، وحظيت دائماً بقبول إسرائيلي عام، وإن أنكر الصهاينة ممارستها بإصرار، بُعثت حياة من الدرك الأسفل للصهيونية لتنبؤاً عرشها. بل إن المؤرّخ الشهير بني موريس حاجج العام الماضي بأن إخلاء فلسطين من سكانها العرب الأصليين عام ١٩٤٨ إخلاء تاماً كان يُمكن أن يؤدّي إلى السلام في الشرق الأوسط.^(٦) وهو ما استوجب ردّاً

أفضل الطرق لمواجهة «الحرب» الديموغرافية مع الفلسطينيين. قلة فحسب من الإسرائيليين تُعارض الاعتقاد بوجود أو ضرورة وجود مثل هذه الحرب. غير أن الدعوة الإسرائيلية العامة إلى إخضاع الديموقراطية للديموغرافيا^(٧) استلزمت وتستلزم تبني آليات للحد من تزايد الفلسطينيين تُذكر بالآليات النازية.

وكمثال صارخ على ذلك، فقد اجتمع «مجلس إسرائيل للديموغرافيا» عام ٢٠٠٢ من أجل «تشجيع النساء اليهوديات في إسرائيل - ولا أحد غيرهن - على زيادة حملهنّ للأطفال؛ وهذا مشروع، إن كان لنا أن نُحكّم عليه بناءً على نشاط المجلس السابق، سيحاول أيضاً وقف الإجهاض» بحسب هارنيس هذا المجلس العالي الاعتبار، الذي يضمّ أبرز الأخصائيين النسائيين والشخصيات العامة والعلماء والأطباء، يركّز أساساً على كيفية زيادة اليهود بالنسبة إلى الفلسطينيين داخل فلسطين ٤٨، وذلك باستخدام «وسائل لزيادة معدل الخصوبة اليهودية ومنع الإجهاض»^(٨)

١ - Lily Galili, "A Jewish Demographic State," **Ha'aretz**, July 1, 2002.

٢ - Gideon Levy, "Wombs in the Service of the State," **Ha'aretz**, September 9, 2002.

٣ - Chris McGreal, "Sharon Takes on Rabbis Over Jewish Identity," **The Guardian**, December 31, 2002.

٤ - Yuli Tamir, "Divide the Land or Divide Democracy," **Ha'aretz**, April 14, 2002.

٥ - Benny Morris, "A New Exodus for the Middle East," **The Guardian**, October 3, 2002.

٦ - Baruch Kimmerling, "False Logic," **The Guardian**, October 5, 2002.

٧ - Geraldine Bedell, "Set in Stone," **The Observer**, June 15, 2003.

٨ - Ferry Biedermann, "Interview with the Israeli Military Historian Dr Martin van Creveld," January, 2003. [www.de.indy-media.org/2003/01/39170.\\$html](http://www.de.indy-media.org/2003/01/39170.$html)

الاتجاهات. حتى إلى روما... دعوني أورد ما قاله الجنرال موشي دايان: على إسرائيل أن تكون مثل كلب مسعور، أخطر من أن تزعج... إن قواتنا المسلحة ليست في المرتبة الثلاثين في العالم من حيث القوة، بل في المرتبة الثانية أو الثالثة. لدينا القدرة على أن نسقط العالم كله معنا. وأستطيع أن أطمئنكم إلى أن ذلك سيحصل قبل أن تسقط إسرائيل نفسها» ولعل هذا يفسر تفسيراً وافياً لماذا اعتبر الأوروبيون إسرائيل مؤخرًا أكبر خطر على السلام العالمي.^(١)

ولكن هناك تفسيراً ثالثاً يلتقي مع تفسير بايي، وهو أن إسرائيل حالياً تتمتع بأمرين في وقت واحد: فهي تطوق على الأرض مزيجاً متفناً من الإجراءات التي تجعل حياة الفلسطينيين جيماً لا يُطاق، فتخلق بيئة نفسي إلى تطهير عرقي بالتدريج؛ ولكنها في الوقت نفسه تتجنب القيام بمشهد دراماتيكي يُجفل العالم ويدعوه إلى شجب أفعالها وفرض العقوبات عليها.^(٢)

٧ - التناقضات التي يتعذر استمراؤها
إذا وضعنا جانباً طبيعة إسرائيل الكولونيالية، فإن السؤال هو: هل تستطيع دولة تُصر على النقاء الإثني، وعلى القمع المؤسساتي لحقوق الأقليات، أن تُصنّف دولة ديمقراطية؟ حتى أصدقاء إسرائيل الأوفياء بدأوا يفقدون إيمانهم بقدرتها على التوفيق بين تناقضين صارخين: الديمقراطية الليبرالية الحديثة، والتمركز البالي على الذات الإثنية. وفي هذا الصدد يؤكد أستاذ جامعة نيويورك البروفسور طوني جودت ما يلي: «في عالم يتزايد فيه التمازج والتزاوج بين الأمم والشعوب، وتنهار عوائق التواصل الثقافية والقومية، ويكثر من بيننا أصحاب الهويات الاختيارية المتعددة حتى لنشعر بالقيود لو أُجبرنا على الالتزام بواحدة فقط؛ في عالم كهذا، إسرائيل هي حقاً مفارقة عفى عليها الزمن... بل هي مفارقة مُختلة وظيفياً أيضاً. وفي 'صراع الحضارات' اليوم، بين ديمقراطيات تعددية منفتحة، ودول إثنية غير متسامحة بشكل عدواني ومدفوعة

بالعقيدة الإيمانية، تتعرض إسرائيل فعلياً لخطر الاندراج في المعسكر الخطأ».^(٣)
وقد توصل أبراهام بورغ، وهو زعيم صهيوني صميم، إلى استنتاج مشابه.^(٤) فبعد أن هاجم القيادة الإسرائيلية بوصفها «عصابة لاخلاقية»، أكد أن على إسرائيل، التي «ترتكز إلى دعوات من الفساد، وإلى أسس من القمع والظلم»، أن «تسقط أوهامها وتختار بين القمع العنصري والديموقراطية.»

VI - الدولة العلمانية الديمقراطية: آفاق جديدة

بغض النظر عما يقوله المنافقون والأنبياء الدجالون، فإنه لا أمل لإسرائيل، كدولة إقصائية كولونيالية - استيطانية،^(١) بأن يقبلها ضحاياها أو يغفروا لها أفعالها أبداً. وعليها أن تعلم أن مغفرة هؤلاء وحدهم هي ما يُعتد به في نهاية المطاف. لكن على الفلسطينيين، بل وعلى جميع العرب الذين وقّعوا ضحية إسرائيل،

١ - Thomas Fuller, "European Poll Calls Israel a Big Threat to World Peace," **International Herald Tribune**, October 31, 2003.

٢ - يشرح الناشطان السلاميان غادي الغازي وعزمي بدير أن الترانسفير «ليس بالضرورة لحظة دراماتيكية، لحظة يُطرد فيها الناس ويفرون من مدنهم وقراهم. إنه ليس بالضرورة انتقالاً مخططاً له ومنظماً بدقة، بباصات وشاحنات مليئة بالناس.. الترانسفير عملية أعمق من ذلك، عملية ديب بعيدة عن الأنظار... المكون الأساسي فيها هو التقويض التدريجي للبنية التحتية لحياة السكان الفلسطينيين المدنية في مناطق ٦٧ حتفها المتواصل بالإغلاقات والحصارات التي تمنع الناس من الوصول إلى أعمالهم أو مدارسهم، ومن تلقي الخدمات الطبية، وتمنع خزانات الماء وسيارات الإسعاف من العبور، الأمر الذي يعيد الفلسطينيين إلى عصر الحمار والعربة. هذه الإجراءات مجتمعة تُضعف تحكّم السكان الفلسطينيين بأرضهم» Ran HaCohen, "Ethnic Cleansing: Past, Present, and Future," www.Antiwar.com, December 30, 2002.

٣ - Tony Judt, "Israel: The Alternative," **New York Review of Books**, Vol. 50, #16, October 23, 2003.

٤ - Avraham Burg, "The End of Zionism," **The Guardian**, September 15, 2003.

الدولة العلمانية الديمقراطية تقدم فرصة حقيقية لإنهاء الاحتلال من غير أن يتحول الفلسطينيون إلى قامين لقامعهم

(٢) أن تُمنح حقوقَ المواطنة الكاملة والمطلقة والمساوية لكلِّ المواطنين، يهودًا وعربًا.

(٣) أن تُحترم، وتشرَّع، بل وتغذِّي، الخصوصيات الثقافية والدينية والإثنية، والتقاليد الخاصة بكلِّ مجموعة، مع الحرص على الوعي الكامل بالانتماء إلى سياقٍ عربيٍّ أشمل

وعلى الإسرائيليين ألاَّ يُعتبروا هذا التحدي الأخلاقي الفلسطيني لوجودهم الاستعماري تهديدًا وجوديًا لهم هم، بل دعوةً سمحاءً إلى تفكيك الطبيعة الكولونيالية للدولة، وإلى إتاحة الفرصة أمام اليهود في فلسطين للتمتع بجمالية سوية بوصفهم بشرًا متساوين ومواطنين متساوين مع الفلسطينيين في دولة ديمقراطية علمانية ستكون أرضًا واعدة حقًا لا «أرضًا موعودة» كاذبة.

وهذا سيُثبت بالتأكيد أن روزفلت مات، ومعه ماتت أيضًا إنسانيته النسبية اللاأخلاقية.

رام الله

أخلاقية لتحقيق سلام عادل ودائم في أرض فلسطين التاريخية هي بناء دولة علمانية ديمقراطية بين الأردن والبحر المتوسط، تركز على الإنسانية المتساوية ومن ثم على الحقوق المتساوية. إنَّ الحلَّ القائم على دولة واحدة، أكانت دولة ثنائية القومية - وهذا مفهومٌ يستند أساسًا إلى فرضية خاطئة وهي أنَّ القومية الإسرائيلية معرَّفة^(٣) - أم دولة ديمقراطية علمانية، تقدِّم فرصة حقيقية لإنهاء الاحتلال من غير أن يتحول الفلسطينيون إلى قامين لقامعهم. وسيكون على فلسطين الجديدة هذه:

(١) أن تتيح وأن تسهّل، لكلِّ اللاجئيين الفلسطينيين، العودة والتعويض عمّا خسروه، لكون ذلك هو التعويض الأخلاقي الوحيد الذي يُقْبَله الفلسطينيون مقابل ما عاؤوه طوال عقود. غير أنَّ على مثل هذه العملية أن تتمسك، في كلِّ الأوقات، بالواجب الأخلاقي في تجنب إلحاق أيِّ معاناةٍ ظالمةٍ أو غير ضروريةٍ باليهود في فلسطين.

وبرغم الألم والحرمان والغضب التي تولَّده هذه «الأنسنة النسبية» في صدورهم، أن يميَّزوا بين العدل والثأر: فالأول يُؤدِّي إلى إزالة الاستعمار بشكل أخلاقي، في حين أنَّ الثاني ينحطُّ إلى دوامةٍ لا تنتهي من اليأس واللاأخلاقية. يكتب بولولو فريري ما يلي: «إنَّ نزع الأنسنة - de-humanization، الذي لا يُصمِّم فقط مَنْ سلَّبت منهم إنسانيتهم بل يصمِّم أيضًا (وإنَّ بطريقة مختلفة) مَنْ سلَّبوها، هو تشويهٌ للرسالة الهادفة إلى أن نصبح بشرًا بشكلٍ أكثر اكتمالاً... إنَّ النضال [من أجل الأنسنة] ممكنٌ فقط لأنَّ نزع الأنسنة... ليس قَدْرًا معطى بل نتيجة لنظام ظالم يولد العنف في القامين، فينزِع بدوره الإنسانية عن المقومعين... ومن أجل أن يكون لهذا النضال معنى، فإنَّ على المقومعين... ألاَّ يتحولوا قامين للقامين، وإنما أن يعيدوا الإنسانية إلى الطرفين.»^(٤) بعد رفض الإنسانية النسبية من أيِّ جهة أتت، وبعد الإصرار على الأساق الأخلاقي، أعتقد أنَّ أكثر الوسائل

١ - حتى ميرون بنغنيستي، رئيس بلدية القدس سابقًا، يصرِّح بالتالي «القصة الأساسية هنا ليست بين حركتين قوميتين تواجه أحدهما الأخرى بل بين أبناء البلاد والمستوطنين. إنَّها قصة أصلانيين يشعرون أنَّ الناس القادمين من وراء البحار اخترقوا موطنهم الطبيعي وسلبوهم ما يملكون.» راجع:

Ari Shavit, "Cry, the Beloved Two-State Solution," Ha'aretz, August 10, 2003

٢ - Paulo Freire, *Pedagogy of the Oppressed* (NY: Herder & Herder, 1972), p. 28.

٣ - تقدِّم الثنائية القومية binationalism افتراضين إشكاليين: الأول هو أنَّ اليهود أمة، والثاني هو أنَّ أمة كهذه لها الحقُّ في الوجود في فلسطين. الواضح أنَّ الثنائية القومية لا تستطيع أن تُنَجِّج بين الفلسطينيين من جهة، ويهود العالم من جهة ثانية. ولكن هل سيعرِّف اليهود الإسرائيليون أنفسهم كأمّة الأريج لا، لأنَّ ذلك سيناقض المقدِّمة المنطقية الأساسية للصهيونية. وهل يُعتبر الإسرائيليون أنفسهم أمّةً بالتأكيد لا، لأنَّ ذلك - عدا افتراقه عن الصهيونية - سيُشتمل الأقلية الفلسطينية (٢٠٪) القاطنة بين طهرانيهم.